الخطاب ما بعد الكولونيالي في كتابات ميشال فوكو
Beyond colonial Discourse In the writings of Michel Foucault

أ. سلايميـــة يمينـــة
(جامعـة باجي مختار – عنـــابة)

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 13-2016 ص ص. 47 – 64

الملـــــخص

تندرج كتابات المفكر الفرنسي ميشال فوكو في إطار ما بعد الكولونيالية من حيث هي مجال معرفي أفرزته ما بعد الحداثة و الذي يبحث في العديد من الإشكالات من بينها: الأنا و الآخر، المركز والهامش، المعرفة و السلطة...الخ. وقد عملت هذه الدراسة على البحث في أهم المواضيع التي طرحها فوكو و التي تمس هذا المجال مُسَائلا من خلالها المركزية الغربية أهمها: المعرفة والسلطة، الجنون، السجن...الخ، كما عرضنا لأهم الانجازات الفكرية الأخرى التي تقاطعت معه مثل إدوارد سعيد و مفكرو مدرسة فرانكفورت...الخ.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية، المركزية الغربية، المعرفة و السلطة، المركز والهامش.

Abstract

The writings of the French thinker Michel Foucault fall within the framework of post-colonialism, a domain of thought stemming from the post modernity, it deals with the problems: the ego and the other, center and margin, knowledge and power ... Our study sees Foucault reading on the major subjects in Foucault's work in relation to Euro centrism: knowledge / power, madness, prison ... sounds forget other similar contributions, in this case the work of Eduard Said and the Frankfurt school.

Keywords : Post - Colonialism - Euro centrism - Knowledge / Power - Center, Marge.

1-ما بعد الكولونيالية– تحديدات و مفاهيم –

أصبح مصطلح «ما بعد الكولونية»«Post Colonialisme» كثير الحضور في المجالس و الندوات العلمية و البحوث الفكرية ..الخ، و يشير هذا الأخير إلى واحد من أهم حقول الدراسات الثقافية التي أفرزها ما بعد الحداثة، البارزة في حضورها والإشكالية في دلالتها و مفاهيمها، و الذي زاد المصطلح إشكالية هو المكون اللغة «ما بعد» الذي يَشِي للوهلة الأولى بمعنى«تالية» أو «لاحقة» ليلتبس في ذهن المتلقي مع مفهوم الاستقلال لأنه و ببساطة مرحلة ما بعد الاستعمار، هي مرحلة الاستقلال، و لكن نظرة خاطفة لبعض المفاهيم التي ساقها المفكرون لهذا المصطلح، ستساعد على جلاء ذلك الغموض و انكشاف ذلك المستور من المعنى فـــ «دوغلاس روبسون » في كتابه« الترجمة و الإمبراطورية – نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية- » قدّم لقارئه ثلاثة مفاهيم: **«**دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها، أي كيف استجابت لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه خلال الاستقلال، و هنا تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونيالية، و الفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا النصف الثاني من القرن العشرين. دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها، أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه منذ بداية الكولونيالية، و هنا تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية، و الفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا الفترة الحديثة، بدءًا من القرن السادس عشر.

دراسة جميع الثقافات/المجتمعات/البلدان/الأمم من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من الثقافات/المجتمعات/البلدان/ الأمم، أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة لذلك القسْر، أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه، و هنا

تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية و الثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كله.»(دوغلاس روبنسون. 2009.ص32)[1]

لم يستخدم مصطلح « ما بعد الكولونية» لفظه إلا في عام 1985، و ذلك من قبل الناقد الأسترالي Simon During في مقالة له بعنوان« بلوغ السياسة » إلا أن الدراسات ما بعد الاستعمارية كانت قد بدأت في الظهور منذ بداية العقد الخامس من القرن العشرين، و منذ ذلك الحين بدأ الدارسون في استخدام المصطلح بلفظه، و أصبح مصطلح ما بعد الاستعمارية يظهر في عناوين الصحف و المجالات و الدوريات المختلفة، و استعمل بشكل موسع و معمق في مجموعة من المقابلات مع ناقدة أمريكية من أصل هندي «جياترى سبيفاك» حملت عنوان « الناقد ما بعد الاستعماري The Post Colonial Critic و نشرت عام 1990 في كتاب بهذا العنوان.(رشيد وديجي: إدوارد سعيد و نظرية الخطاب ما بعد الاستعماري WWW.Aiznalley.com)[2]

تُعد النظرية ما بعد الاستعمارية واحدة من أهم الحقول المعرفية الجديدة و الجديرة بالبحث و التقصي، و هي جزء من حقل النظرية الثقافية مما يجعلها مرتبطة مع فروعها: الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس، الفلسفة، التاريخ ..الخ، كما يشير مصطلح « ما بعد الكولونيالية» إلى ذلك النظام الثقافي الذي ناقش الخطاب الاستعماري، و أعاد النظر في مقاوماته و أسسه و ناقش ممارساتها التطبيقية. تعمد دراسات ما بعد الكولونيالية إلى تفويض كل المفاهيم الداعية إلى الوحدة و الانغلاق و المركزية كما تعمل على زعزعة الهرمية و هدم ثنائية المركز و الهامش، و إعادة الاعتبار للهامش عبر إعادة خلق التوازنات من جديد و يرتكز

سؤال ما بعد الاستعمارية على القراءة الباحثة بُغية تفكيك الظاهرة الاستعمارية من خلال السعي إلى تتبع جذورها التاريخية، و تهدف دراسات ما بعد الكولونيالية أيضا إلى:

- تحرير الشعوب من الهيمنة بمختلف أنواعها السياسية و الثقافية و الاجتماعية.
- إبراز التباينات المختلفة في لغات و ثقافات و سياسات و تواريخ الشعوب قصد إعادة الاعتبار للهامش.
- تفويض الرؤية الاستبدادية الغربية.
- العناية بالنتاجات و النصوص و القيم و المفاهيم التي ساهمت مرحلة الاستعمار في ظهورها سواءً كانت مؤيدة للامبريالية أو معارضة لها.
- رصد العلاقة بين الأنا و الآخر/ الشرق و الغرب.
- رصد العلاقة القائمة بين الثقافة و السلطة.

إلى غير ذلك من القضايا التي تلقي عليها دراسات ما بعد الكولونيالية الضوء.

إن فهم ما بعد الكولونيالية مرتبط بفهم الظاهرة الاستعمارية و النزعة الامبريالية و المركزية الغربية، بل و البحث في تكونها و الحفر في بداياتها و مراحل تشكلها و من ثمة يمكن العمل على تفكيك بُناها و قراءة مفاهيمها و معرفة آليات اشتغالها، و قد كانت الدوافع التوسعية و الطموحات الاقتصادية غالبا هي الدافع الأول وراء استعمار الشعوب رغم أنها دائمًا تتوارى خلف دعاوى التمدين و التحضير التي طالما قال بها المستعمر، ليحاول الخطاب ما بعد الكولونيالي الكشف عن محتواها الامبريالي و تجلياتها الاستعمارية، في محاولة لرد الاعتبار للهامش بإلغاء تلك الترابية الزائفة التي كرسها الغرب و إعادة تشكيل هذه الثنائية التي أنتجت نتيجة رغبة جامحة في التمركز و السيطرة على العالم و صياغة العلاقات و القوى المتحكمة في البشرية و رسم حدود و ملامح هذا العالم و التحكم في

مصائر البشر و حياتهم في نوع من الاحتفاء بالذات و الاعتداد بالأنا و القول بالتفوق و الأفضلية على باقي الأعراق، إن مثل هذه الفرضيات و الرؤى إن لم نقل الأوهام التي تسعى المركزية الغربية لتكريسها بكل الوسائل، و هي ما تسعى دراسات ما بعد الكولونيالية إلى نقدها و تفويضها لتضرب من ورائها الوجود الامبريالي و نواياه الإقصائية و تتمرد على كل ما يحاول تبرير الظاهرة الاستعمارية بصيغها المباشرة أو غير المباشرة و رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها.

يمتد الاستعمار إلى أعماق التاريخ حتى يمكن القول بأنه ناموس من نواميس الحياة، و كأنه حتمية تاريخية أو قانون البقاء، و بالتالي فالبحث في بدايته أمر بالغ الصعوبة، لأنه كان و لا يزال ديدن الدول الكبرى، لكنه بلغ أوجه في العصر الحديث، و كان بلوغه هذا الحد مرتبط بتصاعد الرأسمالية التي كانت مشحونة بالرغبة في ابتلاع العالم، هذه الأخيرة التي فرضت نفسها في بدايات القرن العشرين، و بلغت أعلى درجات الاحتكارية و الامبريالية و تحكم الأقليات المالكة.

يعد الاستعمار أحد أهم أدوات التسلط العسكري و الاقتصادي و السياسي و الثقافي الذي تمارسه الدول الأوروبية القوية ضد دول أخرى من أجل إخضاعها و السيطرة على كافة مواردها الطبيعية و طاقاتها البشرية بهدف تحقيق الرفاهية الاجتماعية و الاقتصادية لشعوبها،فالدافع الأساسي للاستعمار في صيغته القديمة و الحديثة هو التوسع و الاستغلال الاقتصادي و تأمين أسواق تجارية، و كذا طرق و مواصلات تسمح بإنعاش اقتصادها.

إذن من المستحيل القول بالفصل بين توسع الرأسمالية كنظام اقتصادي و بين ما آلت إليه الكثير من شعوب العالم الثالث، فلا شك أن الرأسمالية مسؤولة عن عمليات إبادة حضارات و ثقافات، بل و شعوب بأكملها، إلى درجة أصبح فيها

الحديث عن الحضارة الغربية مشكوكا فيه ليصبح القول بالهمجية الغربية هو البديل المناسب خاصة بالنسبة لشعوب آسيا و إفريقيا، لما صحب التوسع الرأسمالي من مآس أثقلت كاهلها.

يختلف الاستعمار عن الامبريالية من حيث أن الاستعمار هو عملية النهب و السلب و الاستيلاء على الأراضي و الثروات الطبيعية، و القتل و التنكيل بالمواطنين، و التدخل إن لم نقل التحكم في سياسة و كل مقاومات الأمة، أما الامبريالية فهي مرحلة متأخرة من الرأسمالية، إذ أن التزايد في رأس المال و النمو الهائل للصناعة في بلدان العالم الأول خلق فائضا وجب استثماره لضمان استمرارية هذا المستوى من التقدم، فوجدت هذه الدول منالتها في بلدان العالم الثالث، إذ كانت هذه الأخيرة تتصف بالتخلف على جميع المستويات، و في الوقت ذاته هي غنية بالمواد الأولية و اليد العاملة، لذلك اعتبرت الرأسمالية هي السمة المميزة بين الاستعمار و الامبريالية.(آنيا لومبا.2007.ص21) **(1)**

تطرح النظرية ما بعد الكولونيالية العديد من المحاور و تحاور العديد من الإشكاليات تنحو كلها منحنى واحد هو تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة النظر في تاريخ الاستعمار بُغية إعادة الاعتبار لمستعمرات قُدّر لها أن ترزح طويلا تحت نير الاحتلال الأوروبي و تذوق ويلات الحروب و وحشية المستعمر و همجيته من سلب و قتل و تنكيل ليدفعوا بذلك ثمن الدعاوى الكاذبة و الشعارات الزائفة التي تدعي التنوير و بأنها تحمل رسالة إلهية هي الرقي بهذه الشعوب الحيوانية المتخلفة إلى مصاف البشرية لأن«الكسل و العدوان و العنف و الجشع و الاتصال الجنسي غير الشرعي، و الحيوانية و البدائية و البراءة و اللاعقلانية بغرورها

المستعمرون (غالبا بصورة متناقضة و غير منسقة) الإنجليز و الفرنسيون و الألمان و الإسبان و البرتغاليون إلى الأتراك والأفارقة و الأمريكيين الأصليين و اليهود و الهنود و الايرلنديين و شعوب أخرى و تجدر الملاحظة أيضا أن بعض تلك الأوصاف استعملت لوصف أفراد الطبقة العاملة و النساء في داخل أوروبا.» (آنا لومبا.2007.ص115)[1]

و قد تحدثت الدكتورة "رنا قباني" في كتابها "أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد" بشكل مفصل عن مثل هذه الصور الزائفة من خلال مجموعة من الأساطير التي ألفت عن الشرق و التي تأتي أهميتها من كونها راحت في ظل امبريالية القرن التاسع عشر تتخذ شكلا منهجيا و منظما باعتبار أنها كانت شيئاً حيويا للامبريالية و مخططاتها، و لتبرر الصورة التي يجب أن يظهر عليها الإنسان الأوروبي فهو « لم يأت كمستغل، و إنما جاء كصاحب رسالة تنويرية، كما أنه لا يسعى إلى مجرد الكسب، بل هو يؤدي واجبه نحو خالقه و مليكه عندما يمد يد المساعدة إلى من لم يحالفهم الحظ ليرتقوا إلى مستواه الرفيع، إنه شعار عبء الرجل الأبيض الذي أتاح له أن يُخضع قارات بأكملها.»(رنا قباني.1993.ص20)[6]

إنه لمن أعجب العجائب أن يقدر للخطاب ما بعد الكولونيالي المناهض للامبريالية الأوروبية أن يولد و يترعرع في أحضان أوروبا ذلك أن « نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي ظهرت في المشهد الثقافي الجامعي للدول الأنجلو فونية، و خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، و ارتبطت بجامعة كولومبيا، فيما ارتبطت "الأرسطية الجديدة" (في النقد) بجامعة شيكاغو و دراسات "الجندر"و "الكتابة

النسوية" بجامعة انديانا، و دشنها جامعيون من الأقليات المهاجرة من مجتمعات أو بلدان ما بعد الكولونيالية، و في مقدم هؤلاء الثالوث البارزة: ادوارد سعيد/ والهنديان هومي بابا BhabhaHomi و "نصيرة نساء الاستعمار" جياتريت شاكرافورتي سبيفال " Spival Gayatri Chakravorty"، و كل هؤلاء من أبناء العالم الثالث ممن قدموا تجارب شخصية و جورج Cicatrices كولونيالية إن " العالم الأول" (الأمريكي) للتدريس بكبريات جامعاته.»(يحيى بن الوليد.2008.ص30)[7]

إن هذه القلة من مثقفي دول العالم الثالث الذين هاجروا إلى دول الغرب و اندمجوا في أوساطها الاجتماعية و الثقافية ينطلقون من وعي رافض في تناولهم للخطابات السائدة، و إعادة كتابتها في خطاب مضاد للغرب، مؤكدين حضورهم في هذا العالم بوصفهم منتمين إلى هويات حضارية مختلف و مدارس فكرية متعددة، يجمع بينهم التمرد على الخطاب المركزي الذي يصدره المركز و الهدف منه تفكيك محاولاته للهيمنة على المناطق التي قَدِمَ منها هؤلاء المثقفين و الكشف عن تحيّزات العرق و الجنس و آليات القمع و الاستغلال، و تمثيلات التابع في خطاب المتبوع.

لقد تمثلت النظرية ما بعد الكولونيالية عند روادها على أنها قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق من خلال تلك المقاربة النقدية ذات الأبعاد الثقافية والتاريخية... و بتعبير آخر أنها نظرية تروم تحليل الخطاب الاستعماري في مختلف تمظهراته و في جميع مكوناته الذهنية و المنهجية و المقصدية بُغية اكتشاف المضمرات التي تتحكم في هذا الخطاب المركزي.

2- الرؤية ما بعد الكولونيالية في كتابات ميشال فوكو

تتأسس أعمال المفكر والفيلسوف الفرنسي «ميشال فوكو» «M. Foucault» كاشتغال معرفي جرئ على مقاربة مختلف التجارب الثقافية و التاريخية الغربية في

محاولة لفحصها و من ثمة العمل على تفكيكها و ذلك في إطار أسماه بـــ"الانطولوجيا التاريخية" و هي فلسفة «ركزت على التجارب الإنسانية و الثقافية في التاريخ، وحللتها وفقا لعلاقات المعرفة و السلطة و بينت كيفية تشكل الذات الحديثة في علاقاتها بالحقيقة، متميزة بخطابها النقدي التاريخي جاعلة من وظيفتها النقدية عملية سياسية تهدف إلى التحويل و التغيير.» (الزواوي بغورة. 2009.ص118)[8] لهذا كان اهتمام فوكو منصبًا على موضوعات: المعرفة، السلطة، الذات، الأخلاق الجنون، الجنس، السجن..الخ و قد ارتكزت دراساته على منهجه الأركيولوجي و الجنيالوجي، و قد حدد فوكو موضوع فلسفته بأنها تعمل على «تحليل الوقائع الثقافية التي تميز ثقافتنا، و إني أحاول أن أضع نفسي خارج الثقافة التي أنتمي إليها، و من ثم تحليل شروطها الصورية حتى يمكن نقدها.»(Michel Foucault.P607 ,1994)[9]

تتأتى أصالة فوكو كونه: **أولا**: استطاع أن يتناول الثقافة الغربية على أنها ثقافة غريبة عنه، فقام بوصف دقيق لآليات الإخضاع في البداية، و لآليات الانعتاق لاحقا عبر ما كتبه عن الذات الغربية في علاقاتها بالحقيقة في مؤلفيه " ميلاد العيادة " و"أركيولوجيا المعرفة" و في علاقاتها بحقل من حقول السلطة "تاريخ الجنون" و "المراقبة و المعاقبة" و في علاقاتها بالأخلاق "تاريخ الحياة الجنسية" **ثانيا:** أن كتاباته مثلت خلفية للعديد من المفكرين (عرب، غرب) الذين اضطلعوا بمهمة الكشف عن علاقة السلطة بالمعرفة، و ما قاربها من موضوعات تدخل في إطار دراسات الجنوسة والنسوية، التعددية الثقافية و سياسات الهوية...الخ.

إن الأفكار التي جاء بها فوكو تقارب في طرحها إلى حد بعيد أفكار مفكرين وفلاسفة آخرين على تنوع مشاربهم و اتجاهاتهم ، منهم: ادوارد سعيد، محمد

أركون، عبد الله العروي، ثيودور أدورنو، جاك دريدا، جيل دولوز.الخ إذ اشتركوا تقريبًا في الفكرة الأساسية و هي مقاربة و نقد الواقع الغربي و علاقاته بالآخر استنادًا إلى خلفية معرفية رصينة.

تكتسب كتابات ميشال فوكو الفلسفية خصوصية معينة كونها تهدف إلى تهديم المسلمات معتمدة آليات التفكيك العقلانية الرصينة، كما أنها تخترق الظاهر المألوف لتغوص في رحلة البحث في الطابوهات و ما هو هامشي و في المناطق المظلمة بُغية الوصول إلى آراء و مقاصد فكرية تكشف حقيقة الممارسات الغربية المتخفية وراء ستائر الحضارة الزائفة و الشعارات الفارغة و الادعاءات الكاذبة.

إن منهج فوكو يقوم على رفض مبدأ التسليم بظواهر الأمور و لا يقنع إلا بما تكشفه عملية التقصي و التفكيك و التحليل العقلاني، لأن هذه الآليات وحدها تكفل الوصول إلى الحقيقة المقموعة و المسكوت عنها في طرائق حياتنا و خطاباتنا وممارساتنا اليومية، ذلك أن الواقع الذي يعيشه ميشال فوكو هو واقع إشكالي يطرح علامات الاستفهام و يطرح التساؤلات و يغوي بالبحث أكثر مما يدعو إلى العيش فيه بسلام و اطمئنان و التماشي مع معطياته و قبولها و التسليم بها.

إن أعمال ميشال فوكو المتشعبة تجعل منه رجلا يتأبى عن التصنيف و التحديد فهو الناقد الأدبي، و المؤرخ، و الفيلسوف و المفكر، و العالم النفساني ...الخ حتى يمكن القول أنه ينطبق عليه وصف بشرى موسى صالح لادوارد سعيد بأن كتاباته تتأبى عن « التشرنق أو التخندق أو القولبة أو الاصطفاف في أي باب من أبواب المنهجيات وشعاب الإيديولوجيا أو أشكال الانتماء الحواري الذي يختلف و يتنوّع، و يتطابق ويختلف، ففي تطابقه اختلاف وفي اختلافه تعدد.»(بشرى موسى صالح.2001.ص79)[10] إنه المفكر الذي لا تجد نفسك إلا و قد تماهيت مع فكره و تبنيت أطروحاته إذ أنك « ستتعلم منه الكثير في سوسيولوجيا العقاب في "المراقبة

و العقاب" Displin and Punich و ابستمولوجيا العلوم في "الكلمات و الأشياء" و التفكيك الفلسفي لنظرية السلطة في "تاريخ الجنس" The History Of Sexuality الجزء الأول، و الفلسفة الشارحة للمعرفة التاريخية في "حفريات المعرفة" و نظرية الفكر السياسي في "الحقيقة و السلطة"...»(تشارلز ليمتر.2002.ص30)[11] إنه الرجل الذي يحمل هموم المهمشين و الأقليات والتابعين في قاعِ المجتمع و خلف الظل و وراء الحجب، و يراهن على أعمال معول النقد لكشف المستور و تفكيك الممارسات الخاطئة و الظالمة لتحقيق أقل قدر من المساواة و العدالة الاجتماعية و لحفظ إنسانية الكائن البشري. لقد عبر ميشال فوكو عن طموحات فئة من المظلومين، و جسّد سعيهم للانعتاق و التحرر عبر القيام بشعرية و فضح الممارسات اللانسانية.

إن المشروع النقدي الفوكوي و من خلال محاولاته لكشف النقاب عن الواقع المعاصر بكل تناقضاته و أنساقه المضمرة ينخرط ضمن الراهن و يبتعد عن الفلسفة التي تخاطب العالم من أبراجها العاجية، فيسلط الضوء على المجتمعات المعاصرة و ما ينهشها من أمراض كالنشيؤ و المادية، انعدام الأخلاق، الاغتراب، الاحتكام المفرط إلى المصالح ...الخ، ليقوم بواجب المثقف كما حدده العديد من المفكرين و الفلاسفة ابتداء بجون بول سارتر و ما قال به عن ضرورة الالتزام بقضايا العصر إلى المؤرخ مارك بلوخ القائل: " إن الرجال هم أبناء عصرهم أكثر من كونهم أبناء آبائهم"، إلى المفكر الإيطالي أنطونيو غراميشي، الذي صك مصطلح "المثقف العضوي" الذي لا تقتصر وظيفته على القيام بعمل ذهني بل هو« المثقف الذي تكون علاقته مع الطبقة الثورية ينبوع تفكير مشترك، فليس هو ذلك النرجسي الفرداني المحلق على أجنحة الفكر الحر... و الذي يقيم علاقة مضببة أو سرية مع

الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.»(عمار بلحسن.1984.ص53-54). [12]أما المصطلح المقابل له فهو مصطلح "المثقف التقليدي" و هو «ذلك الحطام الثقافي الاجتماعي الذي بقي من انجازات كتلة تاريخية سابقة و ماضية.»(عمار بلحسن1984.ص61). [13]إضافة إلى هؤلاء أمتثل المفكر الفلسطيني ادوارد سعيد في كتاباته لما حدده من دور المثقف في كتابه "تمثيلات المثقف" « من المهام المنوطة بالمثقف أو المفكر أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة و التعميمات الاختزالية التي تفرض قيودًا شديدة على

الفكر الإنساني وعلى التواصل ما بين البشر.» (إدوارد سعيد.2006.ص19). [14] فأقام مشروعه عن الاستشراق في كتابيه "الاستشراق" ومن بعده "الثقافة و الامبريالية" الذي عُدَّ تتمة لما طرح في الاستشراق مبرزًا العلاقة بين المعرفة و السلطة إذ أوضح أن للاستشراق أحكاما استعلائية تنطوي على نوايا عنصرية ترمي إلى المصادرة العرقية و تروم القضاء على كل الأعراق التي تمثل الآخر (الشرق) من خلال تمثيله في المتخيل الأدبي و الإبداع الفني و الإنتاج الفكري بصورة اللاعقلاني، فاسق، طفولي، متخلف و بالمقابل فإن الأوروبي عقلاني، متحل بالفضائل، ناضج، ســـوي، ذلك أن المحاولات

الدائمة للغرب الرامية إلى بث هذه الصورة النمطية للشرق ليست إلا بهدف السيطرة الغربية و إثبات فوقية الغرب و دونية الشرق.

و لم تنأى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت عن ذلك الطرح، إذ أنها رغم تأسسها على دعائم فلسفية بحتة إذ أنها تشربت مبادئ الكانطية و مقاولات الهيغلية و الماركسية كما استقت من فكر مارتن هايدغر و التيارات الفلسفية الألمانية المختلفة، إلا أنها لم تظل حبيسة البرج العاجي بل ظلت وفية لمبادئ الفلسفة و تقاليدها مثل التفكير العميق و عدم الأخذ بالظاهر إلا أنها و في الوقت ذاته غاصت

في أعماق القضايا، لكنها تجاوزت ذلك بأن غاصت في الحياة الحديثة و واقعها المرير و فسحت المجال لنمو نزعة نقدية تتماشى مع المتغيرات الحياتية و متطلبات الظروف الراهنة المتأزمة فقدمت تحليلات نقدية للواقع المعاصر بما لها من طاقة فكرية تحوي قدرة نقدية هائلة لكل ما هو عام و شامل، إنه ديدن مفكري ما بعد الحداثة المدافعين عن قيم الاختلاف و التعدد و الداعين إليها« ...يلجأ وصف الأرشيف إلى إبراز الآخر و الخارج و لا يستند التشخيص من هذا القبيل في البرهنة على إثبات هويتنا، إلى ألاعيب التمييز و التفريق بل ليبرهن أننا اختلاف و أن عقلنا هو اختلاف الخطابات، و أن تاريخنا هو اختلاف الأزمنة، أنانا هو اختلاف الأقنعة، و أن الاختلاف هو أبعد ما يكون عن أصل منسي و خفي، بل هو ذلك التبعثر الذي نحن عليه، أو الذي نقوم به.»(Michel .1969.-127P126 Foucault)**.(15)**و قد نسبه دافيد هارفي إلى الفكر ما بعد الحداثي «تستحق أفكار فوكو الاهتمام ...لأنها مثلت أحد المصادر الثرية لحجج ما بعد الحداثة و العلاقة بين السلطة و المعرفة هو الموضوع المركزي في الأعمال تلك.»(ديفيد هارفي.2005.ص67-68)**.**[16]فالطرح الذي جاء بهميشال فوكو عن قضية (المعرفة و السلطة) يشكك فيما ذهب إليه فكر التنوير بأن (العلم، العقل المعرفة) هي وسيلة للتقدم و السعادة، بل أكثر من ذلك فهو يذهب أبعد من ذلك إذ يربطه بالسلطة و اكراهاتها المتعددة، ففي معرض حديثه عن التعذيب الذي عرف في العصر الكلاسيكي من حيث هو «عقاب جسدي مؤلم يتفاقم إلى حد الفضاعة نوعًا ما.» (ميشال فوكو.1990.ص71) [17]يربط فوكو بين السلطة و المعرفة و يعتبر أن للتعذيب وظيفة سياسية تتمثل في تبرير السلطة و تقويتها فـــــــ «التشكيل القضائي في القرن الثامن عشر قد اشتغل ضمن هذا التناسق الغريب، حيث أن

التدبير المرسوم الذي ينتج الحقيقة يتزاوج مع التدبير الذي يفرض العقوبة، فالجسد المستجوب أثناء التعذيب يشكل نقطة تطبيق القصاص و يشكل حيز استخراج الحقيقة.» (ميشال فوكو.1970.ص78).[18] و كأن فوكو يشير بأصبع الاتهام إلى العصر الذي راهن على العقل ليحقق السعادة و الحرية و الكرامة للإنسان و ينعته بالتضليل و الخداع و يقدم تجربة السجن و التعذيب نموذجًا واقعيا لما يقول.

إلى جانب تجربة السجن و التعذيب يقدم ميشال فوكو تجربة أخرى هي تجربة الجنون فهو في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" يقرأ تجربة ثقافية و تاريخية يعتبر الحجز أهم معالمها ليعيد بذلك «كتابة تاريخ الإقصاء و هو ما يعني القيام بأركيولوجيا الاستلاب» (ميشال فوكو.2006.ص105)[19] في محاولة منه إلقاء الضوء على عصر التنوير و أهم أسسه و هي العقل الذي راهن عليه دعاة التنوير باعتباره خلاص الإنسانية و سعادتها إذ تم فهم الجنون الذي يمثل اللاعقل بأنه تهديد للعقل لذا حضر فعل الإقصاء على اعتبار أن اللاعقل هو« العار العلني للعقل» (ميشال فوكو.2006.ص77).[20] و لعل معاملة المجنون وعاملة عنيفة و قاسية و مساواتـــه بالحيـــوان و حرمانـــه مـــن حقوقه
الإنسانية يشكل أهم مظاهر الإقصاء و الظلم الاجتماعي لشريحة حكم عليها بفقدان العقل.

يكشف فوكو من خلال قراءته لهذه التجربة الثقافية الغربية عن محدودية العقل و عجزه و نسبيته كما يفضح الانقسامات التي قامت داخل المجتمع الأوروبي: عاقل مجنون/ سوي مريض/ مركزي هامشي ليتحول بذلك تاريخ الجنون إلى تاريخ للمقصي و المهمش و المبعد.

لقد أقام ميشال فوكو مشروعه عن المعرفة و السلطة على العديد من التساؤلات لعل أهمها البحث في ماهية السلطة و الكيفية التي تمارس بها، و من

يمارسها و أين، ما هي تمظهراتها في الواقع...الخ و قد وصل بعد بحث دؤوب عن السلطة ذلك الشيء الضبابي أو لنقل ذلك الشبح غير المرئي الموجود في كافة تفاصيل حياتنا و في مختلف أماكن تواجدنا بل و الساكن حتى في وجداننا و المعشش في أذهاننا وصل إلى أن « السلطة إجمالا قائمة في كل خطاب نقوم به حتى لو كان يصدر من موقع خارج السلطة، فهي منغمسة في التاريخ، متجذرة في أعماقه ... بل ربما أن التاريخ ليس إلا السلطة ذاتها و قد تحولت بفعل التطور إلى خطاب يدَّعي العلمية و البراءة» (عمر أوكان.1994.ص13)**.**[21]كما أن صراع ميشال فوكو مع الشبح الذي عاش معه في كتاباته لسنوات طويلة دفع به إلى **«** إبراز السلطة ليس انطلاقا من المقولات الكبرى "الماكرونيزياتية" مثل البرجوازية، الرأسمالية، الأنا الأعلى الدولة، الحكومة.... وإنما انطلاقا من أجزائها المصغرة و المجزأة "الميكروفيزيائية" ليوضح كيف أن المعرفة العقلية كانت تحمل معها انغلاق ملجأ الحمقى، و أن طب بيشا كان يحمل معه المشفى كمستودع**...»** (عمر أوكان.1994.ص30)**.**[22]

ليس العلم حسب ميشال فوكو ببعيد عن السلطة و ليست له القدرة على الإفلات من أسرها ذلك **«**أنه انطلاقا من هذه المعارف التي ضبطها، ظهر إكراه جديد، ليس هو إكراه الحقيقة الوثوقية و لكنه إكراه العلم »(ميشال فوكو.2003.ص189)**.**[23] يشترك فوكو في نقده للعلم و الكشف عن محدوديته مع مدرسة فرانكفورت فـــــــ **«**في تاريخ العلوم في فرنسا كما في النظرية النقدية الألمانية، فإن الأمر يتعلق بامتحان عميق لعقل له بنيات مستقلة لكنها تحمل في ذاتها تاريخ الدوغمانيات و الاستبداد عقل في النهاية ليس له أثر التحرر و الانعتاق إلا بشرط أن يصل إلى التحرر من ذاته»(ميشال فوكو.2000.ص339)**.**[24]

لقد كانت فكرة التقدم هاجسا أعلى من قيمة العقل و التقنية و جعل منها ركائز يقوم عليها مستقبل الشعوب و بقائها فظهرت جملة من الاستراتيجيات والأفكار كرست الهيمنة و المركزية. منها الإيمان بقدرة الفرد و تميزه و تفرده في إنتاج الحقائق و تفسير الكون، في مقابل ما كانت تحمله الأسطورة من اعتداد بالروح الجماعية، آمن مفكرو الحداثة بالاكتشافات العلمية كونها السبيل للتقدم، و كان المروّج لهذا الاتجاه و ما يحمله من أبعاد هو الرجل الأبيض الغربي. « أنها دوامة التقدم المجنون ترسل بالثوابت كلها، فما كان جليلا و مهابا منذ قرون يصبح أثيرا تائها في نهاية الحياة الحديثة»(ك. نيلوف.2005.ص318).[25]

إن العقل الذي راهنت عليه الحداثة قد جر الإنسانية في القرن العشرين إلى دمار و خراب كان سمة العصر، فقد أنجب المشروع الحداثي من رحمة حربين عالميتين، أقل ما يمكن أن توصفا به هو أنهاغول التهم أعدادً هائلة من الأرواح البشرية، و قضى على العديد منها فصار الرعب مُعششًا في قلوب البشرية، خاصة مع تطور الأسلحة و تزايد عدد التجارب النووية، فصار التعارض صارخا بين الوعود التي أتت بها الحداثة و من ورائها العقلانية نظريا و ما تحقق واقعيا، و عليه فقد صارت إعادة النظر في العقلانية الحديثة ضرورة لابد منها، حيث فقدت هالة التقديس و التبجيل التي أُحيطت بها سابقا.

لقدبين فوكو أن الأعمدة التي تُبنى عليها فكر التنوير و هي الحرية، السعادة، التقدم، العقل، العلم كشفت عن محدوديتها و أبانت عن ضعفها و عدم جدواها، فقد توصل إلى أن العقل الغربي جاء مقرونا بنقيضه و هو الجنون، كما ارتبط العلم بالسلطة، و الحرية بالسجن و مختلف فنون التعذيب و لم تذهب فكرة التقدم بعيدا في تحققها إذ سرعانما تحولت إلى نقيضها و هو التراجع و التقهقر.

يُعد ميشال فوكو مثالا للمثقف الملتزم الذي آثر التزام الموضوعية و التخلي عن فكرة الانتماء فقد انطلق في نقده للحياة الغربية المعاصرة و تناقضاتها و ما اجتاحها من خواء روحي و من وعي رافض للاستبداد و الهيمنة على أنواعها و اختلافاتها إذ يقول:« ... أصبحنا نطالب الغرب، و في الغرب بأي حق تكون الثقافة الغربية و العلم الغربي و التنظيم الاجتماعي الغربي و العقلانية الغربية شرعية عالمية Validité Universelle و ليست مجرد سراب و وهم و خداع لسيطرة و هيمنة سياسية» (ك. نيلوف.2005.ص339).[26] و عليه فإن التحليل التاريخي للفيلسوف الفرنسي « يعكس إجمالاً نظرة نقدية للتنوير سواءً فيما يتعلق بالعقل أو العلم أو الحرية أو التقدّم، فالعقل التنويري محدود، و العلم منضبط و غارق في السياسة، و الحرية محكومة بالهيمنة، و التقدّم ليس خطيا و ليس نمطيا و إنما هو تقدّم عكسي»(الزواوي بغورة.2009.ص151).[27]

ختامًا نقول أن المعرفة – حسب فوكو و نظرائه من الفلاسفة و المفكرين الذين حملوا الفكرة ذاتها – هو لعبة في يد السلطة تفعل بها ما شاءت و تأخذها أي مأخذ تشاء، فالخطأ لا يكمن في العقل و المعرفة في حد ذاته بل في سوء استغلالهما.

قائمة المصادر و المراجع

1-آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، الحوار للنشر والتوزيع، سوريـــا، ط1 ،.2007

2-إدوارد سعيد: المثقف و السلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، .2006

3-بشرى موسى صالح: نظرية التلقي – أصول و تطبيقات – المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001.

4-تشارلز ليمتر: حقل فوكو، تر: خالدة حامد، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 109، إتحاد الكتاب العرب، دمشـــق،2002.

5-دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية – نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية-، تر: ثائر علي ديب، دار الفرقـــد سوريـــــا .ط1 .2009

6-ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة – بحث في أصول التغيير الثقافي، تر: محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربيـــة، بيـــروت ، لبنان .2005

7-رنا قباني: أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد -، تر: صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة و النشر، ط3 .1993

8-الزواوي بغورة: ما بعد الحداثة و التنوير – موقف الأنطولوجيا التاريخية دراسة نقدية، دار الطليعة، بيروت، ط1، .2009

9-عمار بلحسن: في الأدب و الإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، .1984

10-عمر أوكان: النص و السلطة، إفريقيا الشرق، ط1– .1994

11-ك. نيلوف و آخرون: القرن العشرون – المداخل التاريخية و الفلسفية و النفسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهـــــرة، مصر .ط1 ..2005

12-ميشال فوكو: المراقبة و المعاقبة – ولادة السجن، تر: على مقلد، مركز الأنماط القومي، .1990

13-ميشال فوكو: التجربة و العلم، تر: الزواوي بغورة ، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2000.

14-ميشال فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، تر: الزواوي بغورة، دار الطليعة بيروت، لبنان، .2003

15-ميشال فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي بيروت، لبنان، .2006

16-يحي بن الوليد: خطاب ما بعد الاستعمار، مجلة الكلمة، العدد 16، أفريل .2008

17-رشيد وديجي: إدوارد سعيد و نظرية الخطاب ما بعد الاستعماري WWW.Aiznalley.com

18-Michel Foucault, L'archéologie du savoir , Ed Gallimard, Paris, 1969.

19-Michel Foucault, Dits et écrit, Ed Gallimard, tome 2, Paris, 1994.